جبال الهبط والإحتلال البرتغالي :

1458 - 1541م

حليمة بنگرعي

لقد تم اختيار منطقة الهبط في الفترة 1458 - 1541م، باعتبار أهمية المنطقة كباب منفتح نحو أوروبا التي عرفت في ذلك العهد نهضة عسكرية وبحرية تمثلت في اختراعها للسلاح الناري، بالنسبة للتقدم العسكري، وفي اختراع الكراڤيلا بالنسبة لما يهم التقدم البحري، الذي تمكن بواسطة البرتغال من غزو المحيط الأطلنطي الذي كان يعتبر البحر الذي لا يمكن تجاوزه بعد راس نون قبل هذا الاكتشاف، إذ السائد في الوسط الذي يتعاطى للملاحة بهذا البحر هو أنه بعد تخطي راس نون قد يعود الإنسان وقد لا يعود:

"Quem Passas o cabo devam o Tornaro o Nam"

ومن ثم تعرضت جبال المغرب المطلة على المحيط الأطلنطي للإجتياح البرتغالي. وأول منطقة كانت مسرحا لذلك هي منطقة الهبط. فبعد أن احتلوا موانئها[1] وسهولها أجبر السكن على الرحيل والإعتصام بالجبال، ويعبر عن ذلك زورارا بقوله:

"... os Mouros atte aquelle tempo nunca se partyrom darredor da villa [2]. Soomente De Noite que se yam dormyr aas aldeas que ally eram darre dor. E Como era menlâa assy Se vinham logo poer per cima daquelles serras e outeiros ... Como gente triste e chorosa ... e mu danvanse dalguas daquellas adlas pera outras mais afestadas em que pensavam teer mayor segurança. Pollo qual todo o Dya alguns daquellas andavan a carretando em sens asnos..."[3].

(1) نقول ميناء لا ثغر باعتبار أن للثغر مدلول خاص الذي هو المكان الغير المحدد الحدود، وهذا لا ينطبق على موانئ المغرب الذي كان معروفا كدولة لها حدود واضحة تجاه البحر.

(2) يعني مدينة القصر الصغير.

(3) - Comes Eanes De zurara: Cronica Do Conde Dom Duarte De Meneses page 123.

ومن ثم تبين كيف أن الإنسان المغربي لم يسبق له أن هاجر دشوره، إلى أن أرغم على فعل ذلك تحت ضغط التدخل البرتغالي، فأخلى بيوته، وحمل أمتعته على متن دوابه ولجأ إلى الجبال والتلال المجاورة ودموعه في عينيه.

هذا إذن عن السبب الذي جعلنا نختار منطقة الهبط لإبراز مكانة الجبل في تاريخ المغرب.

وأما عن اختيار إطار الموضوع التاريخي فيرجع إلى كون أول محطة تعرضت للإحتلال البرتغالي بمنطقة الهبط هي ميناء القصر الصغير الذي سقط بأيديهم يوم السبت 14 أكتوبر 1458 على حين غفلة من أهله بعد النزول البرتغالي به بأسطول ضخم، وحاصرهم المغاربة بعد ذلك مرتين يوم 11 نونبر 1458 بأزيد من 60000 من الخيالة، وعدد لا يحصى من المشاة، وأزيد من ثمانية قواد إضافة إلى سلطان فاس نفسه، وفشل هذا الحصار، وبدء حصارهم الثاني له يوم 9 غشت 1459م واستمر إلى أواخر غشت 1459م دون أن يتمكن المغاربة من استرجاعه. ولقد كانت المنطقة تضم دشورا آهلة بالسكن، ومباشرة بعد أن رفع الحصار هوجمت الدشور التي كان على سكانها إما الإستسلام وتأدية الضرائب للبرتغال أو الإعتصام بالجبال فاختار سكان المنطقة الحل الثاني كما استنتجنا ذلك من نص زورارا الذي أوردناه أعلاه ومن غيره.

وأما توقفنا عند سنة 1541م فذلك راجع إلى بداية نهاية الإحتلال البرتغالي، ومن تم عودة الأوضاع إلى سابق عهدها.

وما أوردناه في هذا التقديم جعلنا نقسم موضوع : جبال الهبط والإحتلال البرتغالي إلى ثلاثة محاور:

- المحور الأول سيعرف بمنطقة الهبط ويضبط حدوده.

- المحور الثاني يتعرض لجبل الهبط وللتدخل البرتغالي الذي فرض إبراز الجبل كمنطقة تجمع سكني واقتصادي هام.

- المحور الثالث يضبط وضعية الجبل في هذا الإطار السياسي.

I- بالنسبة للنقطة الأولى والتي تتوخى التعريف بمنطقة الهبط وبحدوده:

أ - فعن معنى كلمة هبط نقول:

إن مصطلح الهبط استعمل من طرف المصادر المعاصرة للفترة، فلقد أشار إليه

الكراسي[1] والحسن الوزان [2] وابن عسكر[3]، والفشتالي[4] الذي سماه "جهة"، وميزه عن جهة الغرب، وذكره الأفراني[5]، والناصري[6]، ولم يرد ذكر الهبط عند البكري، ولا الإدريسي ولا ابن خلدون، ولكن ابن عذارى ذكره في قوله "إن كورة طنجة هي مساكن صنهاجة الهبط بطريق الساحل مما يلي سبتة"[7]، فالبكري استعمل مصطلح "عدوة"[8] وجعل أول مدنها البصرة، وهي مدينة تدخل ضمن مجال منطقة الهبط، وأما الإدريسي فلقد تحدث عن "بلاد طنجة"[9] وجعلها تضم مدن تدخل ضمن مجال الهبط كذلك مثل : طنجة ، وتشمش وقصر عبد الكريم وأزيلا والبصرة، وفيما يخص بن خلدون جعل المنطقة تدخل ضمن دائرة بلاد غمارة الواسعة الإمتداد إذ تشمل منطقة الريف وتصل إلى بلاد برغواطة[10].

أما المصادر البرتغالية فتحدث عن مدن نعرف أنها تنتمي لمنطقة الهبط ولكنهم لم يشيروا إلى مصطلح الهبط.

---

(1) عبد الله محمد الكراسي، عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الفضائل، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ص : 17 ، ولقد سماه جهة.

(2) وصف إفريقيا، ترجمة ، حجي الأخضر، الطبعة الثانية، ص 306 .

(3) دوحة الناشر، تحقيق محمد حجي، ص 7 .

(4) مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، ص : 93 و 96.

(5) نشير إليه ضمن المصادر المتعلقة بالفترة رغم أنه غير معاصر لها باعتبار أهمية كتابه : "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي: ، الذي اعتمد فيه صاحبه على مجموعة من المصادر تعتبر معاصرة للفترة التي نحن بصددها.

(6) بنفس الملاحظة تخص كتاب : "الاستقصا للناصري، الجزء ، 4 .

(7) "ذكر حد المغرب وإفريقية" وما اتصل بهما وعدَّ معهما" الجزء 1 ، ص : 26 .

(8) المسالك والممالك"، ص : 111 .

(9) "وصف إفريقيا الشمالية، مأخوذ من كتاب: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر ، هنري بريس، ص 108 - 110 .

(10) Ibn khaldoun, Histoire des Berbères et des dynasties Musulmanes de l'Afrique Septemtrionale traduite de l'arabe par Le baron De slane - Tome II, pages: 133 - 158.

ومن تم يتبين لنا التطور الحاصل في التقسيم الإقليمي للمنطقة الشمالية التي برز بها إقليم جديد هو الهبط وذلك في عهد الحسن الوزان، وبذلك يمكن أن نقول أن منطقة استقلت بذاتها وأصبحت تكوّن إقليما أو جهة بعد عهد ابن خلدون، وبالتحديد خلال القرن الخامس عشر الميلادي، ومن قبل كانت تابعة لطنجة أو لمنطقة غمارة.

إذن فالهبط كمصطلح وكجهة ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي وقد يعود سبب ظهور ذلك في هذه الفترة بالذات من خلال شرح مدلوله.

إن كلمة هبط تعني المنطقة المنحدرة أو الهابطة، وقد يعود سبب تسميتها بذلك لأمرين : - الأول أنها كانت بمثابة منحدر إذا نحن أخذناها من منظور كونه محاطة بجبال شاهقة، إذ في اتجاهنا من القصر الكبير نحو المحيط الأطلنطي نكون متجهين نحو منحدر هابط تجاه المحيط في جهته المطلة على المضيق، فهو بتعبير ميشوبلير منحدر يمتد من خاصرة مرتفع جبالة إلى البحر(1).

- أما السبب الثاني فقد يرجع لكونها تضم أهم وأكبر طريق في الفترة وهو الطريق الهابط والمار من القصر الكبير والمؤدي إلى القصر الصغير على المضيق، وهو طريق المجاهدين المتجهين نحو الأندلس، وفي نفس الوقت الطريق التجاري الهام الذي كان ينقل البضائع المستودعة بالقصر الكبير ويوزعها على أوروبا وأطراف المغرب وذلك بشهادة المعاصرين الذين يقولون في هذا المضمار بأنه : "أهم خط تجاري نظرا لاتساعه، وتدخل القوافل منه إلى الموانئ الشمالية محملة بالماشية والتمر والدجاج والسمن والعسل والصابون"(2)، "ومقصدا للتجار وسوقا تجلب إليه بضائع العدوتين وسلعها ... فهو ثغر بين بلد المسلمين وبين بلاد النصارى تحط به رحال تجار المسلمين من آفاق المغرب وتجار الحربيين من أصيلا وطنجة وقصر المجاز وسبة"(3).

ونستخلص من ذلك، من جهة أن الهبط برز كأقليم لأهميته السياسية والإقتصادية، ومن جهة أخرى أنه من جراء ذلك أصبحت له حواضر له محيطها

---

(1) Michaux- Bellaire et G. Salmon: Quelques tribus de montagnes de la région du Habt, page: 57, in/ Archives Marocaines , Tome IV.

(2) Bernardo Rodrigues, Anais de Arzila, Tome I page: 342 et 489.

(3) الناصري، الاستقصا، الجزء 4 ، ص : 111 .

الجغرافي المتميز، وهذا المحيط الجغرافي هو الذي سنتخذه منطلقا لدراسة جبال الهبط في عهد الإحتلال البرتغالي، ومن تلك الحواضر، القصر الصغير، وطنجة، وأصيلا والقصر الكبير والعرائش، ونشير إلى أننا لن نتحدث عن العرائش باعتبار أن أكثر تضاريسها سهلية.

ب - وأما الحدود:

فسنحاول الوصول إليها عن طريق استقراء المصادر ومقارنة ذلك مع ما تقوله بعض الدراسات في هذا المضمار.

فالحسن الوزان يجعله يمتد من نهر ورغة جنوبا إلى المحيط الأطلنطي شمالا ومستنقعات أزغار غربا والجبال المشرفة على أعمدة هرقل شرقا[1]. وجبال أعمدة هرقل هاته هي تلك التي يسميها زورارا جبل الفحايص[2] الممتدة ظهر سبتة، وهو نفس التحديد الذي استنتجناه من المصادر البرتغالية استنادا على الحواضر التي يذكرونها والتي نعرف أنها تدخل ضمن مجال منطقة الهبط. وهو تحديد كذلك لا يختلف عن ذلك الذي جاء به ميشوبلير في دراسته المتعلقة ببعض جبال الهبط إذ جعله ممتد من مجرى واد اللكسوس إلى المضيق[3]، ولا عن ما أتى به الحسن الفكيكي عندما جعله يمتد من مجرى واد تيكيساس شرقا إلى مجرى واد اللكوس من الناحية الجنوبية الغربية[4]. وبناء على ذلك فأننا نجعل حدود منطقة الهبط هي كالتالي:

---

(1) نشير إلى أن المعلومات التي يدلي بها الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا تستوجب بعض التصحيح باعتبار أنه هو نفسه : "يعتذر للقارئ عن الأخطاء التي يمكن أن يصادفه في كتابه، إذ مر عليه عشر سنوات لم يقرء فيها كتابا عن إفريقيا لما شرع في تحرير كتابه"؛ الحسن الوزن وصف إفريقيا، ترجمة حجي ت الأخضر، ص : 15 .

(2) gomes Eanes de zurora : Conica Do Conde Don Duarte, pages: 62, 63, 74, 7; 76 ويسميه: Alfages.

(3) Michaux-Bellaire et G. Salmon: Quelques Tribus de montagnes de la région du Habt, page 7 , in / archives Marocaines tome IV.

(4) الحسن الفكيكي، "مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415-1574م، رسالة لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث، تحت إشراف محمد حجي، ص:36.

من جهة الغرب : المحيط الأطلنطي، ومن الناحية الشمالية الغربية: المضيق وهي حدود لا تطرح تعارض بين المصادر والمراجع باعتبار توافقهم في هذا المجال. بينما تظهر الاختلافات في الجهة الشرقية والجنوبية، وتُطَمْئِنُ بأنها ليست اختلافات بل تكاملا: فالحسن الوزان عندما يجعل الحدود الشرقية للهبط هي الجبال المشرفة على أعمدة هرقل والتي جعلناها تطابق جبل الفحايص يريد بها الحدود الشمالية الشرقية فتكون إذن الحدود الشمالية الشرقية هي جبل الفحايص؛ وبالنسبة للحدود الجنوبية الشرقية والتي يجعلها الحسن الوزن تصل إلى نهر ورغة والدراسات نهر تيكساس فنقول أننا برجوعنا إلى الخرائط نلاحظ أن الإحداثيات الجغرافية التي يقع بها واد تيگيساس والتي هي : '35°2 و 4°56[1] تجعله يطابق أحد روافد واد ورغة ومن تم قد تكون الذاكرة قد خانت الحسن الوزان وجعلته تذكر نهر ورغة باعتبار أهميته ولا يسترجع رفده، ومن تم تكون الحدود الجنوبية الشرقية هي إما نهر ورغة أو نهر تيگساس ونميل إلى ترجيح واد تيگساس على نهر ورغة باعتبار دخولنا مع نهر ورغة في مجال جغرافي آخر بعيد عن المجال الذي وضعنا إطاره في ذهننا من خلال الحواضر التي يضم والتي تتفق على إدخالها ضمن مجال كل المصادر بما فيها البرتغالية. وأما من الناحية الجنوبية فتجعلها الدراسات تصل إلى واد اللكوس والحسن الوزان المرجات الممتدة غرب منطقة أزغار، ونعتقد أن الحسن الوزان يدقق أكثر بجعله للحدود الجنوبية أي الممتدة إلى مجرى واد اللكوس تصل من هذا الجانب إلى المرجات المنتشرة حسب الخرائط الإسبانية[2] جنوب غرب واد اللكوس.

ومن تم تكون حدود جهة الهبط كالتالي:

من الناحية الشمالية الشرقية جبال الفحايص، ومن الجهة الجنوبية الشرقية مجرى واد تيگساس، ومن الناحية الجنوبية واد اللكوس إلى المرجات الممتدة جنوب مصب هذا النهر، ومن الجهة الشمالية المضيق، والغربية المحيط الأطلنطي.

II وأما ما يخص جبال لهبط والتدخل البرتغالي:

---

(1) خريطة، باب براد، مقياس500000 / 1 ، ونشير إلى أن هذا الواد لم يعد له وجود في الخرائط.
(2) Mapa do Campo de Arzila - Escala 1/250000. دون تاريخ.

أ - عموميات:

ستتعرض لجبال الهبط هاته وفقا للإطار الجغرافي الذي تنتمي إليه، أي باتباع تصميم يخضع لانتماء الجبل الحضري، ومن تم سنرى:

ب - الجبال الممتدة حول القصر الصغير:

وتدخل هذه الجبال في الإطار الجغرافي الممتد من جبال الفحايص من الناحية الشمالية الشرقية، وتنتهي عند واد الليان من الجهة الشمالية الغربية، ومن الناحية الجنوبية الشرقية تصل إلى جبال بني حسان ومن تم تضم المنطقة الممتدة حول القصر الصغير الجبال التالية:

1 - جبال الفحايص: Alfages[1]

جبل الفحايص هذ يوجد ظهر سبتة التي يبعد عنها بستة أميال[2] أو ثلاثين كيلومترا. وكانت دشوره - مثل دشر القليعة Colleate[3] ودشر الفحايص[4] - قد تعرضت للهجوم البرتغالي رغم أن السكان كانوا يتحصنون بتشييد بيوتهم داخل أدغال تجعل ولوجها صعبا، وكان الأهالي يملكون رماحا صغيرة يدافعون بها عن أنفسهم، إلا أنهم لم يكونوا يتخذون حراسا شأن باقي دشور القصر الصغير. وقد يعود ذلك لكون جبلهم هذا كانت تعتبر ممراته مستحيلة العبور بواسطة الخيول إضافة إلى الغابة الكثيفة التي كانت تزيد من تحصينه. ونشير إلى أنه مباشرة بعد أن رفع الحصار الأول عن القصر الصغير اتجه أغلب سكان دشوره إلى هذا الجبل خاصة دشر الدار البيضاء Casa Blanca[4] وعين شمس Anexames[5]، ودشر القريبين منه، وكان على الذين فضلوا البقاء في دشورهم أن يخضعوا للبرتغال أي يؤدوا الإتاوات ويعملوا في الفلاحة والصناعة التقليدية لخدمة برتغاليي القصر الصغير، وهؤلاء السكان الذين فضلوا الخضوع عوضا عن الرحيل كان يسميهم البرتغاليون : Os Mouros Das Pazes،

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte De Meneses page : 62,63, 74 et 77.

(2) جعلنا الميل مطابقا للكو البرتغالية التي تساوي 5 كيلومتر : Legoa.

(3) نفس مرجع (1).

(4) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte De Meneses page : 123 et 187.

(5) Ibidem pages : 178 , 179, 185, 241 et 281.

أي المسلمون المسالمون.

ورغم تحصينهم بالجبال، فلقد كان المغيرون البرتغال : Almogavares يجدون وسائل تتكيف مع طبيعة الحصن، فمثلا يتحدث لنا زورارا عن مثل يثير الانتباه وهو أنه عندما يكون الدشر محصنا بأسوار يتجهون إليه ليلا بالمعاول والمجارف وآلات أخرى تصلح للجرف والتهديم، فما أن يصبح الصبح حتي يكون الدشر قد هوجم وأسر أغلب سكانه، ونهبت ماشيته ومدخراته الغذائية[1]. مم كان يضطر السكان إلى تشييد بيوتهم قرب صخور وعرة تختبئ به وتجعل داخل بيوتها سراديب تؤدي إلى أماكنة آمنة خارج الدشر، فإن هوجمت كان ذلك المر مسلك لنجاتها.

ونشير إلى أن المصادر العربية ما قبل القرن الخامس عشر تعطي أسماء مختلفة لهذا الجبل، فالبكري يسميه راس الثور، وبن خلدون ، جبل بني يكم، ونعتبر أن ذلك راجع لكون جبال المنطقة الشمالية ليس لها إسما جغرافيا ثابتا مثل ما نجده في الجهة الجنوبية، ويبقى أن نقول أن اسم جبل الفحايص ممثل في الخرائط الإسبانية وبعض خرائطنا القديمة ولا وجود له في خرائطنا الحالية.

2 - جبل مجكسة: serra Meisquice[2]:

يبتدئ هذا الجبل من مرسى على البحر الأبيض المتوسط وينتهي قرب جبل المنكال، وتنتشر به دشور آهلة بالسكان، إلا أن أغلبها هجرها سكانها بأمر من مجاهد يدعى سيدي موسى : Cegamuci بالنسبة للمصادر البرتغالية. ولم يعد هذا الجبل موجودا تحت هذا الإسم في الوقت الحاضر، ويطابق الوصف الذي يقدمه بشأنه زورارا كل من مرسى مديق وكدية الطيفور، فكدية السفاح. فجبل الدرسة فظهر النقاطة، في ارتفاع يتدرج من 232 مترا، و : 541 مترا ، وهو جبل ذكره البكري والإدريسي وبن خلدون والحسن الوزان. ويجعل الإدريسي وابن خلدون تسميته راجعة إلى استقرار قبيلة بربرية تدعى مجكسة بالمنطقة التي يوجد بها هذا الجبل، ونعتبر عدم ذكر حسن الوزان

---

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte De Meneses page : 178, 179 .

(2) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte De Meneses page : 32,39, 62 et 78.

له نسيان من طرفه لا أكثر، باعتبار ذكره من طرف مصادر معاصرة للفترة، مثل الأنصاري[1] والمصادر البرتغالية[2].

3 - جبل بني حسان : Serra Jaziam[3]:

ويسمي البكري هذا الجبل بجبل بنو حسن بن نصر، ولا يذكره بهذا الإسم الإدريسي ولا ابن خلدون، أما الحسن الوزان فيجعله جبل شاهق عسير المنال بفضل خصائص طبيعته وشجاعة رجاله، بل كان القائد المجاهد علي بن راشد. وكانت القبائل ببادية أصيلا تلجأ إليه عندما يشدد البرتغال الحصار عليها. ولقد كان هذا الجبل مقرا للحركات الجهادية المنظمة ضد البرتغاليين المستقرين بالموانئ نظرا لوعورة طبيعته وشجاعة رجاله، وتجهيزهم تجهيزا جيدا فيما يتعلق بالعتاد العسكري، إضافة إلى كونه كان مقرا لإقامة أقوى القواد المجاهدين وأشدهم يخشاهم برتغاليو الموانئ المجاورة.

4 - جبل بني معدن : Benamaden[4]:

يمتد هذا الجبل شرق جبل مجكسة. ولقد تعرض أهم دشر به وهو دشر بني معدن إلى هجوم المغيرين البرتغال لمعاقبة أهله الذين كانوا يحرقون السفن البرتغالية المرابطة بحصن المنكب مع كل محتوياتها، كما كانوا يتربصون بالجنود البرتغال للهجوم عليهم. وكانت البيوتات مبنية فوق الجبل ومحصنة. إلا أن تلك الهجومات المتكررة أرهقت بعض دشوره وأرغمتها على الخضوع وتأدية ضرائب لبرتغاليي القصر الصغير مقدارها ثلاثة من الأفراس عن كل رأس مقابل السماح لهم بالتعاطي للنشاط الزراعي وتربية الماشية وتأدية خمسه للبرتغال. ونشير إلى أن المصادر المغربية لا تشير إلى هذا الجبل بما فيها الحسن الوزان، فالمصادر البرتغالية وحدها تتحدث عنه، ونعلل سكوت الحسن الوزان عن

---

(1) الأنصاري : اختصار الأخبار ، ص : 19 .

(2) مثلا : Gomes Eanes de Zurara, page : 62,78,79,98,239 et 272

(3) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page : 350, 354.

(4) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page : 98 et suite + Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc, Portugal IV, page 171 et suite.

ذكره بنسيان من طرفه بينما نقول بأن البكري والإدريسي وبن خلدون قد يكون الجبل حمل في عهدهم إسما مختلفا نظرا لما سبق وأن أشرنا إليه في هذا المجال وهو أن الإستيطان هو الذي يخلع الإسم على الجبل.

5 - جبل بني حزمار : Luzmara[1]:

هو جبل تشير إليه المصادر البرتغالية وحدها، وتجعله يقع عند أسفل واد الليان في جهته الشرقية التابعة للقصر الصغير. ولم تعد تمثله حاليا في المنطقة سوى قبيلة بني معدن الذين هم فرع منها. وكان به حراس ومنارات يتم إشعار عبرها كل المناطق المجاورة في حال حدوث هجوم برتغالي وذلك بالطريقة التالية: خلال الليل يشعلون نارا كبرى لإشعار مراكز المراقبة القريبة ، فتشعر هي بدورها المركز القريب منها وهكذا إلى أن يصل الإشعار إلى مركز الحراسة الرئيسي بالقصر الكبير فتطلق عند ذلك مدفعية الإنذار فيجتمع الفرسان ويتوجهون إلى المنطقة المهاجمة من طرف المغيرين البرتغال. وإن حدث ووقع الهجوم بالنهار يتم الإشعار بواسطة دخان كثيف تشاهده مراكز المراقبة فيذهب الحراس في الحين لإشعار البادية المهاجمة بالخطر أولا ثم يتم إشعار المركز الرئيسي لإرسال الجنود للمنطقة المهاجمة، فتضرب الطبول لإخبار الثكنات فيتوجه الخيالة إلى قائد القصر الكبير الذي يوزع عليهم الأسلحة، فيتوجهون بعد ذلك إلى الممرات، وينضم إليهم المتطوعون في الطريق. ونشير إلى أن البرتغاليين كانوا يتوفرون كذلك على نظام للمراقبة في شكل أبرجة للمراقبة وأهم برج للمراقبة كان يسمى الحوش: O Facho، الذي كان منطقة الترصد الأساسية بأصيلا، ويقوم على حراسته الحواش : O Facheiro، كما كانت لهم مناطق للترصد البعيد تقوم بها مراقبة يومية للبادية وتكون بالمرتفعات خاصة منها التلال وكان يمنع على حراسها مغادرة أماكنهم. ولما يكون هناك خطر يعلنونه بواسطة بوق صغير.

ونشير إلى أن الحواش يعتبر مكان الترصد الأساسي ببادية أصيلا، ولقد نصبه البرتغال في مرتفع يسميه المغاربة بالحوش ومن هذا الإسم أخذ البرتغاليون اسمه الفاشو

---

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte pages : 272, 303, 321 et 322.

O Facho أي الحواش. وكانت وظيفته الأساسية هي مراقبة البادية، كما أنه عبارة عن مبنى صغير يرتفع بجانبه عمود أخذ من بقايا أحد الكراڤيلا وهذا العمود كان يرفع بواسطة بكرة Poulie وتعلق به كفوف محشوة بقماش لما ترفع فذلك علامة تنذر بانعدام الخطر، وفي سطح ذلك المبنى كانت هناك مصطبة يقف فوقها الحواش؛ إلا أن هجوما وقع على ذلك الحارس سنة 1511 من طرف المغاربة، مما جعل البورتغاليون يحذفون من هذا المبنى المصطبة كما أصبح الحواش يراقب البادية من قدم المبنى. ولما يسمع الحواش بوق الإنذار من أحد أماكن الترصد: Atayas يخبر بذلك الدليل(1) فيخرج لتقصي الخبر وحماية الرجال المكلفون بالترصد وبعض الأشخاص الذين يوجدون خارج المدينة.

ومنطاق الترصد هاته : Atalayas مهمتها القيام بمراقبة يومية للبادية وتكون بالتلال، وكان يمنع على حراسها مغادرة أماكنهم، كما يمنع على سكان المدينة أن تتعداها باعتبارها حدودا عازلة للمناطق الآمنة. ولما يكون هناك خطر يعلنون عنه بواسطة بوق صغير. وهناك نوعان من مناطق الترصد : Atalayas: - الطلعات القصيرة Atalayas Cortas وتوجد بالتلال المحيطة بمدينة أصيلا منتشرة من هذه المدينة إلى واد لحلو. ويتم العمل بها خلال الفترات المضطربة ومن هذه الطلعات : تلة فرنان داسلفا : Fernan Dasilva، وتلة الغراب: Lomas del Cuervo، وبوگناو : Bugano، والحوش El Hacho، والتلة الكبيرة : La Gorda ، والتلة الحمرة La Ruiva، وبرج البحر : Torre del Mar.

- الطلعات البعيدة : Atalayas Largas: وتتعمق في الداخل إلى ما بين 8 إلى 10 كيلومترا، وتفتح في فترة الحصاد لحماية الفلاحين، كما تفتح في فترة الإنفراجات. وتوجد هذه الطلعات بمنطقة الخنادق: Alfandequin، وعين القصب : Alecasapo، والحمر : Alfomar، وتندافل : Tendefe، والقرية القديمة Aldea Vieja ... وغيرهم.

(1) Adalid أو Adail: مساعد الحاكم في الأمور العسكرية وهو الذي كان ينظم الهجومات على المغاربة بالبوادي، وكان يرشده في ذلك المقدم الذي هو ضابط مساعد.

6 - جبل بني منير Benmeny[1]

ولقد اتجهت إليه ساكنة الدشور السهلية المجاورة له، مما كان يجعله يتعرض لهجوم المغيرين البرتغال.

ونشير إلى أن هذه الهجرة الجماعية للأراضي المنخفضة لصالح الجبل كانت تقلق السلطات البرتغالية المستقرة بالموانئ إلى حد أن القباطنة أصبحوا يَرَوْا بأنه: "ليس في صالح البرتغاليين أن يهجر الناس منازلهم ومداشرهم، ذلك أنهم سيكونون من جهة بعيدين عن متناول المغيرين، ومن جهة أخرى لن يكون بوسع البرتغاليين الحصول على حاجيتهم الغذائية من دون الأهالي، ومن تم من الأفضل لنا أن نتركهم يعمرون البوادي حتى نتمكن من الاستيلاء على ما يملكون، ونحصل على أفراد يوافوننا بأخبار عن أحوال المسلمين"[2].

7 - جبل بني العيش : Benavolence[3]

يقع هذا الجبل قرب جبل حبيب الواقع بمنطقة أصيلا، ونظرا لقربه من أصيلا فلقد هوجم مرات عديدة من طرف البرتغاليين فخاطبهم شيخ كبير من أحد الدشور القريبة منه قائلا:

"إننا نرى يوميا أعيان القبيلة وأطفالها وأقربائنا وأبناءنا يساقون للأسر، وليس لنا سلطان ولا قائد يدافع عنا ويسيرنا، وهؤلاء البرتغاليون يهاجموننا ويهاجمون أرضنا وغرضهم هو القضاء علينا، وحين نلجأ للنوم في مضاجعنا نظل خائفين من هجومهم علينا، ولا يمكننا أن نزرع حتى مقدار كيل : Alqueire من الحبوب خوفا من هجوماتهم"[4].

وقد اقترح عليهم الشيخ التعايش مع المسيحيين ودفع الإتاوات لهم، واتجه بعد

---

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page : 239, 267 et 304.

(2) David Lopes: Os Portugueses en Marrocos, page: 111.

(3) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page :243, 267, 312, 313, 316, 317 et 321.

(4) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page :316-317.

ذلك ممثلون من دشور هذا الجبل إلى قبطان القصر الصغير الذي عقد معهم صلحا يرتكز على شروط[1]، ونشير إلى أنها المعاهدة الوحيدة التي عقدها سكان جبال الهبط مع السلطات البرتغالية.

8 - جبل أنجرة:

يحتل هذا الجبل المنطقة الجبلية الممتدة ما بين طنجة وتطوان وسبتة، واسمه حديث العهد لا تتعدى فترة خلعها عليه القرن الخامس عشر الميلادي، إذ تذكره الحوليات البرتغالية والحسن الوزان، ولا يذكره بهذا الإسم البكري ولا الإدريسي ولا ابن خلدون، وتتفق المصادر على أن تسميته تأتيه من اشتغال سكانه بالنجارة وصناعة السفن. ونظرا لقربه من القصر الصغير فلقد اضطر أغلب سكانه إلى مغادرته تاركين منازلهم وممتلكاتهم: " على نفس الحالة التي هي عليها كما لو كانت مسكونة ومزروعة"[2].

وتخبرنا الحوليات البرتغالية أن تلك الهجرة شملت السكان الذين يتوفرون على أقارب أو ممتلكات بالجبال المجاورة الأخرى مثل تلك المتحدث عنها سالف، وبقي البعض الآخر لارتباطهم الشديد بالأرض؛ ولوجود حرفيين وتجار بينهم يعتبرون أن مغادرتهم لمنطقتهم يشكل ضررا بالنسبة لهم، ففضلوا الإستسلام وتأدية الإتاوات.

ج - الجبال المنتشرة حول طنجة:

بدأ الهجوم الأول على طنجة من طرف البرتغاليين يوم 29 شتنبر 1437م، عن طريق تطوان، ثم هاجموه هجوما ثانيا سنة 1458م، وثالثا سنة 1464، وظلت مركز هجومات عدة إلى أن سقطت في يدهم يوم 28 غشت 1471م دون مقاومة بعد أن علم سكانها بعقد اتفاقية هدنة بين السلطان الوطاسي محمد الشيخ ونظيره البرتغالي أفونسو الخامس، مما جعلهم يقررون إخلاء المدينة والإعتصام بالجبال. ومن تلك الجبال تذكر الحوليات البرتغالية:

---

(1) Ibidem, page: 319 - 321.

(2) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة حجي الأخضر ، ص : 322 .

1 - جبل تافوغالت : Tafogulte[1]

يتوفر المسلمون به على برج للمراقبة. ولقد اتجهت إليه أغلبية ساكنة الدشور السهلية، ودشور الأودية مثل دشور واد تهدارت وواد مغوغة. وكان به دشر يسمى: دشر تافوغالت الذي هو عبارة عن ملجئ وحصن منيع للخراس الذين كانوا مستقرين به، ويلحقون أضرارا بالبرتغاليين ويفشلون مخططاتهم الهجومية ضد الدشور المجاورة مثل دشر طنجة البالية، وبني مكادة وأديموس وغيرهم...

2 - الحوف Xarafe[2]

يقع هذا الجبل غرب جبل تافوغالت، وهو جبل عال كان يصلح كبرج للمراقبة.

3 - جبل سيدي علي : Ciguideli[3]

تذكر الحوليات أنه جبل عال، إلا أن ارتفاعه في وقتنا الحاضر لا يتعدى 285 متر.

4 - جبل بني مصور : Benamaçuar[4]

وهو جبل يوجد في الحدود بين باديتي طنجة وأصيلا. وقد كان به مغيرون مغاربة يهاجمون المواقع البرتغالية في كل من طنجة وأصيلا.

5 - إدراسن : Guaderes[5] أو Guaderez[6]:

هناك من يعتبر أن كلمة : Guaderes، مركبة من واد ، وراس، مما يجعلها تترجم وادراس، ونعتقد أن الكلمة واحدة وأصلها بربري ومن تم فالجبل يسمى : إدرسن نسبة إلى الأسرة الإدريسية.

---

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page: 332.
(2) D. F. Meneses, Historia De Tangere, page : 22.
(3) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome II , page: 67.
(4) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome I , page: 427.
(5) D. F. De Meneses, Historia de Tangere, page: 31.
(6) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page:351.

ج - بالنسبة لأصيلا:

بعد أن سيطر البرتغاليون على أصيلا اتجه سكان الدشور الذين رفضوا الخضوع للبرتغاليين إلى الجبال المجاورة منها:

- جبل بني گرفط : Benacofu[1]

يقع في منطقة وسطى بالنسبة لبادية أصيلا، ويحده شمالا جبل أنجرة، وجنوبا جبل مجكسة. ولقد رفض سكانه الخضوع للبرتغال لأنه ضغوط، واتجه الملك البرتغالي أفونسو الخامس بنفسه لإخضاعهم، ولكنهم كادوا أن يقتلوه بسهم صوب اتجاهه لولا أن اعترض طريقه الكونت دون دوارتي دي منسيس حاكم القصر الصغير فسقط من جرائه قتيلا ومن أجل ذلك طلب الملك من محافظ قسم وثائق طوري دو طنبو آنذاك ايانش دي زورارا كتابة حولية تتعلق به عنونها حولية الكونت دون دوارتي دي منسيس : Conica Do Conde Dom Duarte De Meneses.

وهاجم البرتغاليون بعد ذلك سكان هذا الجبل ووطَلَوْا الأحجار بالكبريت وأشعلوا ورَمَوْا بها في الحقول، وتركت النار تلتهم الأخضر واليابس بالبادية، وقامت معركة بين الطرفين، وغنم البرتغاليون ماشية كثيرة، وأسروا بعض الأشخاص. وحتى يتمكن سكان جبل بني گرفط من الصمود اضطروا إلى الهجرة إلى مناطق أكثر إلى الداخل.

- جبل سوماتة : Cumete[2]:

يمتد هذا الجبل ما بين جبل بني گرفط شمالا وجبل أهل السريف جنوبا وجبل بني عروس شرقا، ولقد تعرضت سكانه لهجومات المغيرين البرتغال إلا أنها كانت ضعيفة باعتبار موقعه في الدخل، إذ كان البرتغاليون لا يتجرؤون على الابتعاد كثيرا عن مراكزهم التي هي الموانئ.

---

(1) Gomes Eanes de Zurara, Cronica Do Conde Don Duarte page:44 et. David Lopes: Os Portugueses en Marrocos, chapitre IV, page 440+ 323 + الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة ... ص : 349

(2) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome II, page: 86 et 126.

- جبل بني عامر Benamares[(1)]:

يقع جنوب شرق أصيلا، ويتصل به من جهة الجنوب جبل بني گرفط، ومن جهة الشرق جبل بني عروس، ومن الشمال جبل الحبيب، ويضم العديد من الدشور، كما يتوفر على برج مراقبة يطل على البادية المحيطة به. وأهم دشر به يسمى دشر بني عامر هاجمه البرتغاليون لرفضه تأدية الضرائب فأخلى السكان بيوتهم وملئوها بالتبن ثم هجروا نحو العرائش واستقروا في المنطقة الواقعة بين هذه المدينة وبين القصر الكبير وأقاموا بها دشرا جديدا أطلقوا عليه اسم دشر بني عامر.

- جبل بني عروس : Benarroz[(2)]

يحده شمالا جبلي الحبيب وبني احمايد وجنوبا جبل بني عامر، والملاحظ أن هجومات البرتغاليين عليه كانت قليلة لموقعه في الداخل، إذ للوصول إليه لابد من تخطي جبال بها مجاهدون أشداء مثل جبل بني عامر وجبل الحبيب وجبل بني گرفط، وكذا الصعوبة تقل ما يتم الإستيلاء عليه من غنائم إلى أصيلا. ومن تم كان يستقبل سكان الدشور السهلية الفارين من السيطرة البرتغالية.

- جبل منسرة :Mençara[(3)]

يقع خلف جبل بني عامر، وهو جبل وعر، وكان أناسه يحرثون تحت حراسة الفرسان ومع ذلك يتعرضون لهجومات المغيرين البرتغال كما أحاطه الأهالي بحبائك من قصب. وكرد على هجوم سلطان فاس على منطقة أصيلا الخاضعة للبرتغليين أرسل هؤلاء مقدميهم إلى جبل المنسرة على رأس أربعين فارسا، فقطعوا الزرع ودعكوه بحوافر

---

(1) Ibidem, pages : 26, 108, 17, 270 et suites + Tome I, pagesM 104, 303 ->307 + Gois: Cronica Do Felicissimo Rei Don Manuel, traduction Robert Ricard, pages: 194, 19, 211 et 212.

(2) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome I , page: 46, 53, 96, 104, 432 et Tome II page: 169.

(3) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome I , page: 29, 42, 1, 7, 148, 181, et Tome II page: 66 + Gois: Cronica Do Felicissimo Rei Don Manuel pages: 206 et suites.

خيولهم، ولما حل الصيف هيأ القبطان مشاعل محرقة، وأمر بنقلها على الدواب، واتجه مع كل رجاله إلى المنسرة فأضرموا النيران في كل ما تبقى من محصولها المحصود والمنقول إلى البيادر قصد الدرس(1).

- جبل الحبيب : Farrobo(2)

كان البرتغاليون يسمونه جبل الخروب لوجود شجرة خروب بقمته تتراءى لهم من بعيد، وكان البحارة يسترشدون بها. أما المغاربة فيسمونه جبل الخروب لنفس وجود شجرة الخروب بقمته، كما يسمونه بجبل الحبيب نسبة إلى الحبيب ابن يوسف الفهري، وقد أنجب هذا الجبل كثيرا من المجاهدين الكبار أمثال : علي موكيك Ale Moqueque وسليمان الحريش. Timâo Hurraix، وعلي بني عيش: Ali Benaix، وعبد المالك: amelix، وعزوز الرواس Azuz Arroaz، ومحمد يونس: Mefemede hiunes، وعلي زيدان: ali Zaidâo، والتجار. وقد استشهد كل هؤلاء المجاهدون في ساحة المعركة فوق خيولهم ورماحهم بأيديهم يحاربون ببادية أصيلا. وقد نبّهنا صاحب الأنايش(3) إلى أن هؤلاء المجاهدون يستحقون الذكرى والتكريم، ولقد كرم السكان بعضهم مثل علي موكيك بخلع اسمه على نهر وممر بالمنطقة أصبحا يسميان بنهر علي موكيك وممر علي موكيك وكم يجدر بنا حاليا أن نكرمهم ولو بالذكرى.

إذن يتبين لنا مما سبق أهمية الجبل في الوقت الذي ينعدم فيه الأمن، وتضعف الدولة، وتتعرض البلاد إلى هجوم خارجي، ومن تم نتبين كذلك وضعية الجبل في

---

(1) Luis De Suba: Les Portugais et l'Afrique du Nord, Extraits des annales de Jean III, Traduiction R. Ricard pages: 114-115.

(2) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome I , page : 90, 119 et 483 et Tome II, pages: 13 et 6 + F. D. Meneses: Historia de Tangere, page 21, + david Lopes: Os Portugueses en Marrocos, page : 414.

(3) Bernardo Rodrigues, Anais De Arzila, Tome II , page: 13.

العهد الذي نحن بصدده:

III - وضعية الجبل في الفترة ما بين 1458 - 1541م:

من خلال ما رأيناه أعلاه نلخص هاته الوضعية في خمس وظائف تجعل من الجبل:

1 - ملجأ للسكان يعتصمون به ضد التدخل الأجنبي، إن عجزوا عن مواجهته في المناطق المنبسطة وإن هم قرروا عدم الخضوع له.

2 - مقر الوسائل الدفاعية الأهلية، من أبراج للمراقبة وحراس. ويكلف الحراس بمراقبة منحدرات الجبال ومداخلها، وإن هم لم يلاحظوا أي شيء مريب تعطى الإشارة من الجبل لسكان الدشور بإخراج حيواناتهم إلى السهول والتوجه لمزاولة أنشطتهم اليومية.

ويضاف إلى ذلك متجسسون يراقبون خلال الليل تحركات العدو بالتصنت: فإن هم سمعوا حركة سير غير عادية أو صوت حوافر الخيول، يشعلون نار كبرى لإشعار مراكز المراقبة القريبة فتشعر هي بدورها المركز القريب منها وهكذا إلى أن يصل الإشعار إلى مركز الحراسة الرئيسي بالقصر الكبير فتطلق عند ذلك مدفعية الإنذار فيجتمع السكان ويتجهون إلى المنطقة المهاجمة من طرف المغيرين البرتغال. وإن حدث وقع الهجوم بالنهار يتم الإشعار بواسطة دخان كثيف تشاهده مراكز المراقبة فيذهب الحراس في الحين لإشعار البادية المهاجمة بالخطر أولا ثم يتم إشعار المركز الرئيسي لإرسال الجنود للمنطقة المهاجمة، فتضرب الطبول لإخبار الثكنات فيتوجه الخيالة إلى قائد القصر الذي يوزع عليهم الأسلحة.

وحتى يتسنى الدفاع عن الدشور بشكل ناجح قسمت الجبال إلى قيادتين:

1 - قيادة الشاون : وتضم قبائل جبل الحبيب، وزودت بحصن دفاعي وبمصلحة للمراقبة تضم مستكشفين، ومتصنتين وخيالة.

2 - قيادة القصر الكبير:وتضم قبائل جبل بني عروس وجبل بني گرفط وجبل أهل السريف، وهي تابعة للقصر الكبير الذي كان على رأسه القائد مولاي ابراهيم الذي كان يعين خليفة له لحراسة ممرات جبل بني عروس وبني احمايد، ويضع رهن إشارته عددا من الخيالة يتضاعف عددهم عندما يتم الإشعار بالخطر.

3 - ملجئا اقتصاديا، باعتبار أن المستعمر سيطر على السهول، مما جعل السكان يتعاطون لتربية الماشية، وقد يزرعون السهول المجاورة خفية وتحت الحراسة. ولقد ذكر لنا

زورارا حالات شوهد فيها الفلاحون يزرعون مزبلات الدشور المهجورة تحت حراسة الفرسان ويقومون بعملية الحصاد والدراس تحت حراسة مشددة كذلك بل كان الزرع يدرس على مثن الخيول المسرجة والمستعدة للحرب، وينقل الزرع دون أن يدرى أو نصف مدرى إلى المنازل.

4 - ملجئا سياسيا تنظم به الحركات الجهادية، وتعمل على تأطير السكان لمواجهة التدخل الأجنبي، فأغلب المجاهدين كما رأينا كانوا أبناء الجبل ويقيمون به.

5 - مقر استقرر القبائل، باعتبار أن القبيلة في عهدها هذا هي الجبل نفسه، تخلع عليه اسمها، ويصبح يعرف بها، وتحترم القبائل الأخرى هذا المجال، وتآزرها للإحتفاظ عليه ضمن حدوده.

لقد لعب إذن الجبل في هذا العهد - الذي انعدمت فيه السلطة بضعف الدولة الحاكمة فانعدم الأمن وتعددت الهجومات البرتغالية - دورا حاسما في حياة الإنسان المغربي بحيث أصبح الجبل يأويه، ويغذيه، ويحميه، ويجهزه ليصمد في وجه التدخل البرتغالي.